محمد شاويش*

فوارق كبيرة بين المجتمعات العربية يجب فهمها:
«الأوساط العربية» كما تتجلى في الحرب اللبنانية

مقدمة: مفهوم «الوسط»:

لأجل فهم القوى الاجتماعية العربية الكبرى الفاعلة موضوعياً وذاتياً، بصورة واعية وغير واعية، في الصراع السياسي ـ الأيديولوجي في المجتمعات العربية أقترح إدخال مفهوم «الوسط» إلى تحليلاتنا التي تتناول الثقافة والسياسة والفكر في بلاد العرب، ويتولى هذا المفهوم سد ثغرات مفاهيم أسبق منه من نوع مفاهيم «الطبقة» و«الشريحة الاجتماعية».

وأعني بمصطلح «الوسط» جماعة من الجماعات المكونة لمجتمع معين تجمعها رؤية موحدة للواقع وللعالم، ولها خيارات سياسية واحدة، وأسلم بتأثير مهم لاجتماعها في مكان جغرافي واحد مستقل نسبياً له تجربته مع الطبيعة ومع الإنتاج المادي لضروريات العيش ومع الجماعات البشرية الأخرى وله أفكاره الدينية الخاصة.

ما يجعلنا نميز وجود «وسط» معين هو اشتراك أفراده بمظهر سلوكي واحد: تعبيرهم عن قيم واحدة ورؤية واحدة للعالم ومواقف سياسية واحدة و«مزاج» سياسي واحد، ولكن هذا الظاهر تعبير عن «لب» اجتماعي يقف في الخلفية، هو أثبت منه وأقل تغيراً.

ولعل القارئ سيجد في هذا المصطلح تماثلات معينة مع مصطلح يستعمل في الغرب في علوم مختلفة كالبيولوجيا والكيمياء وعلم الاجتماع هو المصطلح Milieu ولا تخلو هذه الملاحظة من الصحة، غير أن القارئ بالتأكيد سيجد اختلافات في استعمالي لهذا المصطلح عن استعمالاته المعتادة في تلك العلوم الغربية، وسيتضح معنى المصطلح وأبعاده مزيداً من الاتضاح فيما آمل في الأمثلة العيانية التي سأتكلم عنها في هذا المقال وفي مقالات أخرى إن شاء الله.

وأقصد بالدراسة المدققة للأوساط العربية أن يفهم العرب بعضهم بشكل أفضل، ولا أقصد التوجه الاستشراقي الذي يركز على الاختلافات العربية بهدف تأبيدها وبالعكس: أريد أن يفهم العرب بعضهم ليتمكنوا من الحوار وليتوصلوا إلى التعاضد على أساس مستنير بمعرفة كل منهم العميقة بالآخر، تعاضد أساسه غير مشوب بأنواع من سوء الفهم قد تعمل لوحدها لاحقاً لعرقلة العمل المشترك أو قد يثيرها الأعداء المتربصون (ويخطر على البال هنا أن أذكر بتجربة الوحدة المصرية السورية).

1. عن «الأوساط» الشامية:

إذا كان «الوسط» يتجلى من خلال أشكال خارجية (أزياء وقواعد سلوك ولغة)، ومن خلال «مزاج» سياسي يجعلنا قابلين للتنبؤ بمواقف الأفراد المنتمين إليه سلفاً من المستجدات السياسية بمجرد وقوع هذه المستجدات، وقبل أن نراها ونسمعها عند هؤلاء الأفراد، فإن علينا في اعتقادي أن نصادر على وجود «لب اجتماعي ثابت» للوسط يغير من لونه الأيديولوجي من حقبة إلى أخرى، ولكن هذا التغيير يظل في «المضمون الظاهر» للفاعلية الاجتماعية للوسط، ولا يطال «المضمون الكامن» المتعلق بمصالح وجودية جوهرية لجماعة معينة تتغير تعبيراتها وتظل هي ثابتة.

قرأت مرة في كتاب لجوزيف أبو خليل (الكتائبي المعروف) أنه قال لمناضل في الحزب القومي الاجتماعي السوري ما معناه: من الطبيعي أن تكون وأنت الأورثوذكسي قومياً سورياً وأن أكون، أنا الماروني، كتائبياً!

لعل مثال ذلك القطاع المسلم من المدن الساحلية في لبنان دال هنا: استمرار التوجه السياسي القومي العربي مع تغير الأشكال التي يأخذها هذا التوجه. وقد تبنى المثقفون الشاميون من أصول مسيحية موقفاً فكرياً يمتاز من جهة بانفتاح على الثقافة الغربية ومشاركة في المقابل في الموقف الشعبي الرافض للاستعمار، وقد قادت التفاعلات المعقدة بين «الأوساط» الشامية في النصف الأول من القرن العشرين إلى تغلب التوجه القومي المعادي للاستعمار وليس للثقافة الغربية على الاتجاه الديني التقليدي الذي كان مضاداً للاستعمار وللثقافة الغربية بآن واحد، ومع النصف الثاني من السبعينات ظهر انقسام حاد بين تيار شعبي يتميز بالعداء للثقافة الغربية والاستعمار على أرضية أيديولوجية جديدة ليست هي الأيديولوجية التقليدية القديمة (الفرق كبير بين الشيخ محمد الأشمر والشيخ عبد الفتاح أبو غدة مثلاً، وكذلك الفرق كبير بين الشيخين الشهيدين عز الدين القسام وأحمد ياسين مع أن الثاني نظرياً أعلن أنه استمرار للأول) وبين تيار جديد موال للثقافة الغربية وللسياسة الغربية بآن واحد ظهر في الأوساط نفسها تقريباً التي كانت سابقاً معادية للاستعمار.

ولنا أن نأخذ مثالاً أيضاً على العلاقة بين الأشكال الأيديولوجية والسياسية المتغيرة واللب الثابت الوسط الاجتماعي العربي الذي هو فيما أظن الأنشط أيديولوجياً وسياسياً وهو الوسط الفلسطيني، فقد عبر الفلسطيني عن توجهات ثابتة عبر وجوه أيديولوجية مختلفة تراوحت من الإخوان إلى الناصرية ثم الماركسية فالإسلامانية كما تتجلى في خصوصياتها في حركتي «حماس» و«الجهاد». ويمكن لك أن تتنبأ من «مزاج» الفلسطيني المميز بموقفه حتى من أحداث تحدث في أماكن بعيدة عنه في العالم، فمن الصعب عليه مثلاً أن يتعاطف مع معارضة «شافيز» في بوليفيا، أو أن لا يتعاطف مع معارضة مانديلا لنظام الأبارتايد في جنوب أفريقيا، وهو يجد نفسه «أوتوماتيكياً» تقريباً متعاطفاً مع الكاثوليك ضد البروتستنت في إيرلندا!، ولا شك أن «المزاج المعارض» للفلسطيني هو مصدر إزعاج للأنظمة العربية يجعله مرشحاً دوماً للاضطهاد، وللقيام مجبراً بدور كبش الفداء في كل تغيير سياسي (كما نرى في النموذج العراقي الآن)، وكل انقلاب في توجهات قوة سياسية أو اجتماعية عربية باتجاه التحالف مع أمريكا يجد تجلياً تلقائياً له بالكراهية ضد الفلسطينيين.

2. «وسطان لبنانيان» متناقضان في الموقف من الحرب القائمة:

في عدد واحد من جريدة النهار (النهار الجمعة 4 تموز ـ يوليو 2006 ـ السنة 73 ـ العدد 22733) نشرت رسالتان موجهتان إلى الأمين عام لحزب الله حسن نصر الله، وتناقض الرسالتين في «رؤية العالم» (رؤية العالم المحلي على الأقل، وبالذات رؤية واقع الحرب القائمة وآفاقها وطبيعتها الكامنة)، وفي «مزاج» الكاتبين وتمنياتهما، يدلاننا على وجود «أوساط» متناقضة يتكون منها المجتمع اللبناني.

والرسالتان في الحقيقة تعبران عن مواقف متناقضة في مسائل حاسمة، والمهتمون بالدراسة التحليلية المطلوبة للفعل الثقافي العربي والفعل السياسي اللذين ينبثق واحد منهما عن الآخر ويتبادلان التأثير دائماً لا يجوز أن يتركوا هذه الحالات الهامة الدالة بدون إشارة ولفت انتباه، وبدون جعلها منطلقاً لتكوين أرضية نظرية أمتن تعين الباحث كما تعين الفاعل السياسي والثقافي العربي على جعل عملهما مبنياً على معرفة مستنيرة وليست مرتجلة بالمجتمع العربي الكبير ككل وأجزائه القطرية كل على حدة.

الرسالة الأولى عنوانها: «رسالة إلى السيد حسن نصرالله قبل سقوط الهيكل» وكتبها جوزف وهبة ـ طرابلس.

والثانية عنوانها: «رسالة إلى السيد حسن نصرالله تدمير لبنان وفلسطين لا يعوّض بتبادل الأسرى فقط بل بضمان تحرير شبعا والجولان وإزالة جدار الفصل» وكتبها عصام نعمان ـ بيروت.

في الرسالة الأولى يعرف الكاتب نفسه بأنه «مناضل قديم عرف مارون الراس والخيام وشقرا وبنت جبيل. ذاق طعم البطولات، هناك، على تلك التلة الفاصلة بين دولتين وحضارتين وثقافتين، كما ذاق طعم خسارة الارض والرفاق والانتصارات الموقتة، تحت شعارات العودة الى فلسطين وحرب الامة وشرفها وكرامتها». وينتقل إلى التساؤل: «هل يعيد التاريخ نفسه، مع فارق «بسيط وجوهري» ان الامة باتت تمتد الى طهران ومشاريعها النووية، مرورا حصراً بدمشق؟».

الرسالة تعيد مواقف «قوى 14 آذار» المعروفة التي يعبر عنها وليد جنبلاط في مقابلاته، وهي اعتبار الحرب القائمة عملاً لصالح إيران، وتحميل «حزب الله» المسؤولية عن الضحايا والمهجرين، ودعوته لقبول مبادرة «السنيورة» بإرسال قوات دولية وتبادل الأسرى وعودة شبعا ونشر سيطرة الدولة على جميع أراضيها، ثم البحث في موضوع سلاح الحزب، و«المزاج» الواضح في الرسالة هو مزاج «اليسار الديمقراطي» مثلاً (الياس عطا الله) الذي يكره النظام السوري، ويدعو للعودة إلى بناء دولة عادية، تسالم «إسرائيل» وتخرج من الصراع العربي الصهيوني لأنها دفعت فوق طاقتها من التضحيات، وكان هذا خطأ كبيراً في رأيهم. (هذه المواقف عبر عنها «تائبون» يساريون كثيرون على رأسهم «محسن إبراهيم»، أمين عام «منظمة العمل الشيوعي» وأحد رموز «الحركة الوطنية اللبنانية» في فترة الحرب الأهلية، في خطاب «نقد ذاتي» أثار بعض اللغط منذ مدة).

أما الرسالة الثانية، وهي من المحامي الناصري والوزير السابق عصام نعمان، فتعبر عن «رؤية للعالم» مختلفة و«مزاج» مختلف كلياً.

الواقعة الواحدة تذكر في الرسالتين من منظورين متناقضين كلياً: يقول جوزف وهبة مخاطباً نصر الله: «الا ترى اننا ندفع الثمن الاغلى في التاريخ لقاء تحرير اسير واحد، أو اثنين او ثلاثة؟ وماذا عن مئات الالاف من المهجرين في المدارس وعلى ابواب الدنيا السبعة: اليس في هذا التهجير مساس بكرامات الافراد والوطن؟» أما عصام نعمان فيقول عن الواقعة نفسها: « أسيران إسرائيليان مقابل لبنان كله، بشرا حجرا، زرعا وضرعا. فقد أودت آلة الحرب الصهيونية لغاية الآن بحياة نحو 900 ضحية، بينهم نحو 50 من مجاهدي المقاومة، وجرحت وأعاقت أكثر من 3200 جلّهم من الاطفال والنساء والشيوخ، ودمرت او كادت كامل بنية لبنان التحتية من جسور وطرقات، ومرافق ومرافىء، ومستشفيات ومدارس، ومصانع ومزارع، وشردت نحو مليون من السكان.

اذا كان لأسيرين إثنين في تقدير ايهود اولمرت وزمرته الحاكمة كل هذه القيمة والاعتبار، فأي قيمة واعتبار يقتضي ان نعطيهما نحن للمئات من شهدائنا وجرحانا وأسرانا؟ هل يجوز ان يكون للانسان عندنا، لا سيما الطفل البريء، قيمة أدنى من قيمة الانسان في الكيان العنصري؟ بل هل يجوز لنا ان نتهاون في حق شعبنا وعمراننا وحاضرنا ومستقبلنا فنرضى بوقف المقاومة على شروط العدو بعد كل هذه المجازر والخسائر والفواجع؟».

الأول يستنتج أن الثمن الكبير الذي دفع مقابل الأسيرين دليل على خطل سياسة «المقاومة» (ومنعته في تقديري اعتبارات دبلوماسية واعتبارات التوازن الطائفي التي لا يمكن تجاوزها في لبنان من تجريم نصر الله علانية وتحميله مسؤولية تدمير لبنان وإن كان هذا المعنى واضحاً بين السطور) ، أما نعمان فالنتيجة التي يتوصل إليها نقيض لما يريده «وهبة» فهو يرى أن الثمن الكبير الذي أجبر أولمرت لبنان على دفعه دليل على أننا يجب نحن أيضاً أن لا نقبل بمجرد عودة الأسرى اللبنانيين فهو يطالب نصر الله أن يضع شروطاً أعلى بكثير من هذا هي تطبيق جميع قرارات الأمم المتحدة بما فيها القرار 194 الخاص بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، وتطبيق قرار محكمة العدل الدولية بإيقاف بناء جدار الفصل العنصري، وتأليف لجنة تحقيق دولية في جرائم الجيش الصهيوني، ولجنة تحقيق أخرى تخمن الأضرار المادية التي ألحقها العدوان بلبنان وإلزام المعتدي بدفع الخسائر التي تسبب بها. وهو يقول إن الحكومة إذا اعتذرت عن تبني هذه المطالب فليبق الكفاح من أجل تحصيل الحقوق التاريخية «حياً وحاراً (...) ليبق الصراع مع العدو مستمرا ومتجددا، والكفاح من اجل تحصيل الحقوق غير القابلة للتصرف يبقى حيا وحارا والالتزام بالمقاومة والجهاد يبقى عميقا وملزما ومحفزا. انه تعاقد طوعي مع التاريخ لاعادة صنع التاريخ».

3. الوهابية على مفترق طرق:

لعلي إن ذكرت هنا كيف «تلقيت» الظاهرة الوهابية إن جاز التعبير لا أكون خارجاً عن الموضوع إذ هذا التلقي يلقي أضواء كاشفة في اعتقادي على ظاهرة اختلاف «الأوساط» العربية وطبيعة العلاقات التي يمكن أن تنشأ بينها في حالة التقائها في حيز فاعلية (ثقافية أو سياسية مثلاً) واحد.

منذ أن كنت مقيماً في سورية كانت قناعتي بضرورة معرفة ودراسة ما يجري في المجتمعات العربية الأخرى تدفعني لمتابعة ما كنت أستطيع الحصول عليه من أخبار المجتمع السعودي. وكنت في هذا فريداً تقريباً فقد كان «الوسط» الذي كنت أنتمي إليه آنذاك، وهو وسط وطني ـ علماني يميل إلى اليسار يتعامل باحتقار مع السعودية خصوصاً والخليج عموماً ويعدها بلداً متخلفاً معادياً للتقدم والتحرر العربي عميلاً للإمبريالية ونقطة: لا ضرورة لتضييع الوقت في متابعة أخبار أولئك الناس وأقوالهم وقناعاتهم!.

ولعلي كنت أكثر من غيري من زملائي في الفكر آنذاك مقدرة على الاقتراب من هذا النموذج الفكري الغريب وهذا «الوسط» الأبعد إلينا عملياً من فيتنام وكمبوديا وسلفادور! والسبب هو علاقتي القوية بخلاف معظم هؤلاء الزملاء مع التراث العربي واللغة العربية، بل مع علوم الشريعة، وإن يكن بشكلها النظري المجرد (علوم القرآن والحديث وأصول الفقه).

ولم يكن عندي تصور دقيق للاتجاه الوهابي، وكل ما كنت أعرفه عنه أفكار إيجابية تقريباً جاءت من (سمعته الحسنة عند رجال النهضة بصفته حارب الممارسات المتخلفة والبدع الانحطاطية المنتشرة).

لكني حين صرت أستمع لبرامج الإذاعة السعودية الدينية (مثلاً برنامج الفتاوى «نور على الدرب» من «إذاعة نداء القرآن من مكة المكرمة») كانت تدهشني نوعاً ما فتاوى متشددة لم يكن لي بها عهد، ولكني لم أعدها من خصوصيات الوهابية بل عددتها آراء فقهية فردية، ومن هذه الفتاوى تكفير تارك الصلاة والحكم بطلاق زوجته منه، وهو حكم لو نفذ في الشام آنذاك لطلق تسعون بالمائة من نسائها، حيث كانت المحافظة على أداء الصلاة أمراً نادراً حتى ذلك الوقت! وكذلك الفتوى بوجوب صلاة الجماعة بجميع الأوقات وإلى آخره.

وفي ذلك الوقت أزعجني، لكنني كنت بعد لم أصطدم بالظاهرة الوهابية بكل أبعادها، الهجوم على الشيعة في الإذاعة الرسمية، وكنت أعلم أن الشيعة موجودون في السعودية، فكنت أتساءل: ما هذا البلد الذي يهاجم فيه جزء من مواطنيه في الإذاعة الرسمية التي يفترض فيها أن تعبر عن جميع المواطنين!

من الطبيعي أنه كان عندي شأن بقية زملائي في الوسط، بل شأن قسم كبير من الناس في سورية موقف يحرم التحريض الطائفي ويعده خيانة وطنية، ولم يتضح لي إلا لاحقاً أن هذا التحريم مجهول في السعودية، وأن ما تستفظعه في بلد قد يكون أمراً عادياً في بلد آخر! بل هم يستفظعون استفظاعك إن جاز التعبير!، ففي حواراتي اللاحقة مع بعض السعوديين العاديين المقتنعين بما تعلموه في المدارس (كما هو متوقع من الناس في جميع البلدان) كانوا يعدون موقفي اللاطائفي على العكس هو «الموقف المريب» الذي يدل مثلاً على أني قد أكون شيعياً! (في الحقيقة جزم بعضهم لاحقاً بأني شيعي أو على الأقل «صوفي»! وهما وصفان تستطيع أن تشبههما بوصفي «تروتسكي» و«ماوي» عند الشيوعيين الموسكوفيين أيام زمان!) وكان هذا الموقف منهم أمراً مفهوماً وإن لم أفهمه مباشرة لأنه يستند لرؤيتهم للعالم وطبيعة معرفتهم بهذا العالم وتفسيرهم له.

وفي حرب الخليج الأولى عام 1991 سمعت أن بعض الشيوخ الشباب قد اعترض على موقف الحكومة من الحرب وأن لهم أشرطة في ذلك فاهتممت بالحصول عليها ومن هؤلاء سفر الحوالي وناصر العمر.

وحين استمعت إلى أشرطة هؤلاء لاحظت لأول مرة كم هو الفارق هائل في المفاهيم والأفكار بين السعودية وبلاد الشام، فسفر الحوالي مثلاً كان يبني رأيه الفقهي في معارضة الحرب، لا على أنه لا تجوز مناصرة أمريكي على عربي، أو حتى مناصرة كافر على مسلم (كما توقعت قبل سماعي له)، بل على أنه لا تجوز مناصرة الكافر على الكافر! حيث أن النظام العراقي بعثي كافر وأمريكا وحلفاؤها كفار أيضا! مع إهمال كامل لما يؤخذ في الاعتبار عادة في التحليلات السياسية لأهل الشام من أبعاد تاريخية واقتصادية واجتماعية للسياسة الأمريكية والصهيونية إلى آخره، فتحليل الوهابية الكلاسيكية، كما فهمت آنذاك وإن بصورة غائمة توضحت تدريجيا، يهتم بنقطة واحدة فقط هي: ما هي «عقيدة» الناس؟ وعلى هذا الأساس يتحدد الموقف منهم، فإن كانوا على «العقيدة الصحيحة» فحكمهم الولاء، وإن كانوا على «الضلال» كفراً أو ابتداعاً فحكمهم البراء الذي يعني العداء المرير الشرس المطلق الذي لا هوادة فيه ولا لين.

وفي شريط لناصر العمر راعني استشهاده ببيتين لعمر أبو ريشة كنا في سورية نستشهد بهما أيضا، ولكن في سياق آخر مختلف كلياً، وهما البيتان الشهيران:

رب وامعتصماه انطلقت..ملء أفواه الصبايا اليتم
لامست أسماعهم لكنها..لم تلامس نخوة المعتصم!

ففي سورية كنا نستشهد بهما لوصف نذالة الحكام الذين خذلوا ضحايا الصهيونية ولم يناصروهم أما الشيخ الدكتور ناصر العمر فاستشهد بهما (وهو خطيب مفوه بالمناسبة) لتقريع الحكومة السعودية التي لم تستجب لاستغاثات الطالبات السعوديات ضد المعلمات من ذوات الاتجاه المنادي بتحرر المرأة! والاستشهاد بالبيتين كان بمناسبة هجومه على المظاهرة الشهيرة التي قامت بها هذه المعلمات في الرياض للمطالبة بحق المرأة في قيادة للسيارة أثناء حرب الخليج الأولى.

وقد توليت عام 2000 لفترة وجيزة الإشراف على منتدى «الخيمة» الذي يكتب فيه كثير من أهل السعودية، فأول ما فعلته كان حذف جميع المواضيع الطائفية التي تتهجم على الشيعة، واستغربت الهجمات الهائلة التي واجهتها من المشاركين في الكتابة ومن كثير من المشرفين الآخرين السعوديين أيضاً، وقد قلت لهم ببساطة ما ظننته بديهياً أن التهجم على الشيعة وتكفيرهم وتسفيه قياداتهم الدينية المحترمة وإباحة دمهم ما هو إلا دعوة لحرب أهلية في كل الأقطار التي يعيش فيها شيعة ومنها السعودية وقلت لواحد منهم أظنه كان طالباً جامعياً: تخيل نفسك شيعياً وتسمع بأذنك هذه الهجمات الساحقة على قومك: ألن يخطر على بالك أن التعايش مستحيل ولا بد من بناء دولة مستقلة للشيعة؟

وقد استغربت رده فقد قال: ما العلاقة بين الكتابة ضد الشيعة والحرب الأهلية؟

اتضحت لي تدريجياً معالم الأفكار الكبرى والقيم التي تسود في ذلك الوسط: إنه «وسط» ((مثل أي وسط) مبني على تصورات ثابتة و«تعيينات» للخير والشر، ففي سورية تعد (لحد الآن على الأقل) الصهيونية هي الشر والخطر الأكبر، وتحرم الطائفية، ليس رسمياً فقط بل في التجربة الاجتماعية، وليس هنا المكان الذي أريد أن أتعمق فيه في وضع الطائفية في سورية الذي هو بالتأكيد أعقد من هذا العرض المبسط نسبياً، أما في السعودية فالشر الأكبر هو «الشرك» وفقاً للتعريف الوهابي الذي يعيد «كليشيهات» ثابتة مشيطنة مثل «القبورية» و«الصوفية» و«الرافضة» وشر لا يكاد يقل عنه هو شر «البدع» وأهلها كالأشاعرة والمعتزلة والمرجئة والزيدية (وبعض المتحمسين يضيفون إليهم الإخوان المسلمين!).

وأرجو أن لا يساء فهم هذا العرض، فيظن أنني أفضل بالمطلق القيم الموجهة للوسط السوري على تلك الموجهة في الوسط السعودي، وليس قصدي الحكم القيمي هنا، وإلا لربما ذكرت أشياء لصالح السعودية في رأيي منها أنه على كل حال لا يوجد في السعودية عداء للدين من النوع الذي نراه ضمناً في التجربة البعثية عموماً وبعد عام 1980 خصوصاً، مما يجعل المواطن السوري في حالة فصام شخصية أرجو أنها بدأت الآن تتحلحل وتزول مع زوال تلك الحقبة الهستيرية: حقبة الثمانينات.

وفقاً لمبدأ الولاء والبراء فأي صراع في العالم يجب من جهة أن يتم على أساس العقيدة الدينية، ويجب فيه الوقوف مع «المسلمين» (بالتعريف الوهابي طبعاً) ضد «الكفار». ولكن من جهة أخرى تتم المصادرة (وهي معتادة عند البشر عموماً) أن أفكارنا هي أفكار الآخرين، فكما أننا لا يمكن إلا أن نعاديهم وعلى أساس عقدي، هم كذلك لا يمكن إلا أن يعادونا، والعداء هو العلاقة الوحيدة الممكنة بين المختلفين عقدياً، فلا مجال للمودة بينهم، ومفاهيم من نوع «التسامح الديني» مجهولة في القاموس الوهابي التقليدي، ويدان من يقول بها، وقد تصدى الشيخ صالح بن فوزان الفوزان للشيخ يوسف القرضاوي حين قال في كتابه «الحلال والحرام في الإسلام» إن مودة أهل الكتاب إن لم يحاربونا جائزة، وناصره مشايخ كثر ولكن الشيخ بن باز أجاز نشر الكتاب في السعودية (للقارئ أن يراجع مذكرات القرضاوي التي تنشر في موقعه على الإنترنيت ويراجع كتاب الشيخ صالح الذي أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

لكن هذه الوهابية الخالصة، والتي لا تزال منتشرة شعبياً ويرى القارئ واقعها الفكري بوضوح إن فتح أي منتدى إنترنيت سعودي، نالتها هزة عنيفة مع تحول شباب متحمسين هم تلاميذ لها إلى خصوم للنظام السياسي بعد حرب الخليج الأولى.

هؤلاء تابعوا المقولات نفسها، ليستنتجوا منها ردة علمائهم الكبار وأنهم فقهاء سلطان، لأن هؤلاء لم يطبقوا مبدأ «الولاء والبراء» في حالة تحالف الدولة مع الأمريكان.

على الأساس الوهابي التقليدي لا يجوز لنا أن نتوقع أي «مقاومة» حقيقية للاستعمار والصهيونية، فهذا الأساس كفيل دوماً بتحويل اتجاه البوصلة ليصب في خانة إثارة حروب أهلية عربية، وانني لآمل أن لا يتمدد هؤلاء المقتنعون بهذا الأساس الفكري إلى لبنان وفلسطين فتكون كارثة، ومثال العراق واضح فتكفير الشيعة وإباحة دمهم هي الفتوى الجاهزة التي تساهم بغباء في تنفيذ مشروع التقسيم الأمريكي الصهيوني والذي هو نفسه المشروع الطائفي الشيعي (مشروع الحكيم مثلاً).

ولكن هذا الأساس يتحول أيضاً، ليس فقط في هذا الاتجاه الضار بل يتحول في اتجاه تقارب مع العرب الآخرين، وفي اتجاه تفهم أوسع أفقاً للواقع، وتعديل مهم لرؤية الوهابية للعالم.

هناك عدد كبير من الشباب السعودي الذكي الذي يسير في هذا الاتجاه الجديد النقيض، ولهذا التحول دعاة مشهورون منهم مثلاً الشيخ سلمان العودة، والدكتور محسن العواجي، ومن سلفيي الكويت أذكر الدكتور حاكم المطيري.

وقد كان للفتوى التي تحرم مناصرة حزب الله (للشيخ ابن جبرين) التي نشرت في الحرب اللبنانية الحالية وقع هام على الوطن العربي وعلى الاتجاه الوهابي نفسه، ففي الوطن العربي ألقيت الأضواء لأول مرة على مشكلة مزمنة قديمة كانت مجهولة عملياً هي مشكلة تكفير الوهابية للشيعة، وفي صفوف هذا الاتجاه، وفي السعودية بالذات وضعت المقولات الوهابية التقليدية في حالة اهتزاز، إذ أن الشيعة في لبنان يحاربون عدواً مجمعاً عليه، ومن الصعب الادعاء أنهم أعداء أكثر من الصهاينة، ولا شك أن الاشمئزاز العربي العام من تلك الفتوى لم يمر بلا آثار في هذا البلد الذي هو أياً كانت خصوصياته السياسية والاجتماعية والفكرية فهو يظل أولاً وأخيراً جزءاً من محيطه وله المصالح الجوهرية الوجودية نفسها، إنه جزء من الأمة الأكبر، التي مهما تعددت «أوساطها» تؤول إلى «لب» يصحح المسار دوماً لأنه هو الجوهر وغيره العرض «وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

* كاتب من فلسطين يقيم في برلين

بطرس عنداري*

بطولات حزب الله في لبنان ومساومات ايران في العراق

■ قلنا ان الحرب الاميركية الجديدة الهادفة الى تدمير لبنان هي حرب محيّرة ومذهلة بغموض اهدافها القريبة والبعيدة ونشعر ان الغموض يزداد والحيرة تتسع خاصة بعد ان دخلت فرنسا ومنذ اليوم الاول على خط اطالة هذه الحرب، وقد اثبت المشروع الفرنسي – الاميركي هذه النظرية.

وقد كشف البيت الابيض الاوراق منذ اندلاع القتال حيث قال بوش مكررا بانه يرفض وقف اطلاق النار في لبنان الاّ بحل اقليمي شامل. والحل الاقليمي الشامل يعني تسوية ازمة الشرق الاوسط برمّتها اضافة الى اتفاق على تقاسم العراق على قاعدة ارضاء اميركا.

يبدو ان الموضوع الاكثر حيرة في هذه الحرب العدوانية هو الحلقة العراقية وما يدور على ساحة العراق من صراع علني وخفي بين قوات الاحتلال وايران واتباعها.

من يقدر ان يفسّر ويفهم مثلاً التحالف الوثيق بين اتباع ايران في العراق والولايات المتحدة؟ وهل يستطيع عاقل ان يفهم كيف يخضع عراقيو ايران من امثال عبد العزيز الحكيم والجعفري والمالكي وغيرهم لقوى الاحتلال؟

وهل يقدر احد ان ينفي صمت ايران عندما دمرت قوات الاحتلال مدينة النجف قبل عامين ودنست الصحن الحيدري وارتكبت عمليات القتل الجماعي ضد اتباع مقتدى الصدر؟.. وهل نجد من يقدر على تقديم تفسير بسيط لفتوى الامام السيستاني بتحريم قتل الجنود الاميركيين دون غيرهم من المتحاربين على ارض العراق؟

لقد اعترف الاميركيون بأن المقاومة العراقية ضاعفت عملياتها منذ بداية العدوان على لبنان وبلغت عملياتها 2860 عملية يوميا. وندرك جيدا ان ايران واتباعها ضد هذه العمليات وضد المقاومة بذريعة الصراع المذهبي الذي فجره نسف مركز الامامين في سامراء. ويعرف الايرانيون واتباعهم الجهة التي كانت وراء تلك الجريمة.

الى جانب ذلك تلتقي وتتوحّد وجهات النظر الاميركية والايرانية حول اعتبار المقاومة العراقية عملاً ارهابياً متذرعين بما قام به الزرقاوي واتباعه الذين قدموا خدمات جلّى للاميركيين.

وحتى نخرج من موضوع الصراع على اقتسام العراق نعود الى الحرب العدوانية التدميرية المشتعلة في لبنان. اميركا اعلنت ان حزب الله مسؤولية سورية – ايرانية ويجب اشراك طهران ودمشق في اية تسوية او مفاوضات ولكن واشنطن حريصة جداً جداً على عدم ايذاء سوريا وايران ولا حتى رشقهما بوردة.

وكما صمتت ايران على ابادة ربع سكان النجف الاشرف وهدم ضريح الامام علي نراها تصمت عمليا وفعليا عما يواجهه شيعة لبنان بوجه خاص من مجازر جماعية وتدمير شامل للعمران والممتلكات مكتفية بدور تحريضي مريب مثل دعوة رئيسها الى ازالة اسرائيل من الوجود ورفض وزير خارجيتها للمشروع الاميركي – الفرنسي مستبقاً موقف الحكومة اللبنانية، ولعل افضل دعم حصل عليه لبنان من ايران كان ما قاله مرشد الثورة الاسبوع الماضي بانه يقف مع لبنان ويؤيده.

لا ينكر احد ما قدمته ايران لحزب الله من دعم ولكن انصراف طهران الى المساومات مع اميركا على حساب لبنان وحزب الله في الحرب الحالية واضجاعهما في فراش واحد على ارض العراق مسألة مثيرة واكثر من محيّرة.

ان اسرائيل تأخذ من كلام الرئيس احمدي نجاد حول ابادتها وازالتها من الوجود ذريعة لتصعيد غاراتها التدميرية ضد لبنان وحزب الله والشيعة بحجة ان هؤلاء "قوى" ايرانية الهوى تستحق الابادة والافناء.

وقد جاءت احاديث علي محتشمي الصحافية الاخيرة عن دور حزب الله ومقاتليه سابقاً في عمليات خارج الاراضي اللبنانية وكأنها تحريض اضافي على حزب الله واعطاء الاميركيين والاسرائيليين حججاً جديدة لاطالة الحرب والتقتيل. ويعرف الاميركيون والاسرائيليون جيداً من هو محتشمي وما هي معلوماته المخابراتية ومخططاته السرية.

تبدو الحرب المحيّرة طويلة ويبدو ان مفتاح الحل هو بيد اميركية – ايرانية وربما تكون المفاوضات السرية بين الطرفين في جنيف اكثر من اشاعة تتناقلها الصحف منذ عام كامل.

قد يستغرب البعض كيف نتحدث عن ايران ونحاول تحميلها بعض المسؤوليات دون الاستغاثة بالاشقاء العرب ولومهم على تخاذلهم واستسلامهم وعدم توصلهم الى استراتيجية واضحة تجاه اسرائيل بعد مرور 58 عاماً على قيامها.

وجوابنا على هذا السؤال هو ان العصر العربي لا يعرف سوى الخنوع والتخاذل وقد سقط العرب نهائياً منذ ان احتلت الولايات المتحدة الخليج العربي عام 1991 وتمددت لاحتلال العراق والله اعلم بمخططات الهوس الاميركي المستقبلي تجاه العرب ومصادرة ثرواتهم التي تخضع حاليا للغرب بنسبة تزيد عن 80 بالمئة.

وليس من باب المبالغة ان نقول اننا خائفون على لبنان، خائفون على جميع ابنائه وعلى مصيره واخضراره وقد لا تستطيع بطولات حزب الله ان تقاوم القوى العاتية والمساومات السياسية التي يذهب الضعيف ضحيتها دائماً.

ولبنان الضعيف زادته ضعفاً طبقته السياسية التي عجزت عن ايجاد وحدة وطنية حقيقية واسقطت الوطن في متاهات لا يعرف احد نهايتها التي لا تدعو الى التفاؤل.

* كاتب من لبنان

ابو بكر الصغير*

عـذرا لبنان!

ـ اذا اكتفى المجتمع الدّولي بالتعبير عن اسفه لمجزرة قانا بدون ان يدين صاحب الجريمة.

ـ اذا عجز بعض العرب حتى عن التعبير عن الشجب، والاستنكار لقتل اطفالك.. فاليهم منا كلّ سلام الى يوم يبعثون.

ـ اذا لم نعد نتجرأ على النظر حتى في المرآة لنرى فظاعة جريمة صمتنا.

ـ اذا استحت بعض القنوات بما في ذلك العربية عن عرض مشاهد اطفالك وامهاتك وهم يحرقون، خوفا على مشاعر الخليفة المعظم وجلالة السلطان.

ـ اذا اقنعوك انه لا يكفيك قربانا بجثث 37 طفلا.. وان لزم الامر كلّ ابناء شعبك... لتستكمل مهمّة الجزار.

ـ اذا تاكد ان دم الجندي الاسرائيلي الواحد.. لن تفديه الا دماء آلاف مؤلفة من مواطنيك.

ـ اذا تخلفت لديك قناعة ان تدمير بيت واحد في حيفا وكريات شمونه... يساوي تخريب وتدمير بلد كامل على رؤوس اهله.

ـ اذا استكثروا على ابنائك حتى الموت بكرامة.. وحاولوا اقناعك بانه لا طريق امامك الاّ... الخنوع والذّل.

ـ اذا بلغك ان تدمير جسر او بناية... اشدّ الما عليهم من سقوط مئات من الشهداء.

ـ اذا انكروا على مأساتك وصف «الهولوكست الجديد».. واعتبروه «حقا تجاريا» ليس قابلا للتصرف او الاعارة.

ـ اذا لم تقف «كوندي» في صفّ اطفالك وامهاتك وشيوخك. وتجاوزت مهمّتها كساعي بريد حرب الى عدو جديد لشعبك.. يمهد في كلّ زيارة للمنطقة لمجزرة جديدة.

ـ اذا وجد الرئيس الامريكي بوش الالتقاء ببعض فناني الدرجة الرابعة من منشطي الملاهي والكباريهات اهم من ايلاء اهتمامه بكارثة ستالينغراد العصر الجديد... بيروت الصّامدة.

ـ اذا ادركت ان هيئة دولية على غرار الامم المتحدة او مجلس الامن من المفروض ان تسهرا على الامن والسلم العالميين اعجز من ان تطلقا ولو كلمة تغضب من بيدهم زمام امور عالم اليوم.

ـ اذا قالوا لك اننا نعيش عصر الشرعية الدّولية وحقوق الانسان والديمقراطية.. فوجدت نفسك... على مذابحها كلّها.

ـ اذا تنادى بعض مثقفي امريكا.. نظروا وزايدوا وحملوا مسؤولية كلّ ما حصل ويحصل «لمغامرتك غير المحسوبة»!

ـ اذا اغدقوا عليك بالمال.. واعتقدوا ان ذلك قد يخفف من مصائبك ويعوّض عن شهدائك وضحاياك.

ـ اذا اكتشفت ان العرب اتفقوا على نواقض الوضوء، وحسموا خلافهم حول صوت المراة وحدود عورة الرجل، واصدروا بيانا بالاجماع حول مستقبل صناعة الصابون... وعجزوا حتى عن كلمة تآزر وتضامن معك.

ـ اذا كان المغول الذين دكوا بغداد عام (1258) اكثر رافة وحكمة من مغول العصر الجديد، على الاقل هم دخلوا التاريخ بذاك السؤال العظيم الذي وجهوه وقتها لائمة وشيوخ عاصمة الخلافة قائلين لهم، ايهما افضل لكم: «كافر عادل او مسلم ظالم».

ـ اذا لم تجد بعد خليل حاوي من ينتحر... لاجلك.

ـ اذا لم تقم الخنساء لترثيك.

ـ اذا لم يحضر المعتصم.. لتستجديه.

ـ اذا لم اقدر انا.. الا على كتابة هذه الكلمات... تضامنا وتآزرا معك من هنا، من قرطاج العظيمة التي تقف اليوم حدادا على مأساتك... وتعطي اعز ما لديها من دمها، حبا واخلاصا ووفاء.. ومجدا للعظيمة اليسار «عليسة».

عذرا لبنان... فانت تكتب تاريخ امّتنا من جديد.

،،،،

كلمة النهاية:

«ايّ قيمة لحيواتنا.. اذا كان الذلّ عنوانها، ولم تكن كرامتنا هي هدف كلّ ما فيها».

* كاتب من تونس